# ٤ ـ ابن خُـــرداذبه

## للأســـتاذ كوركيس عواد

( تتمـــة )

### ٦ — الخصومة بين ابن خرداذبة وأبي الفرج الأصفهاني

#### ( ا ) تمهيد

كان الأستاذ كامل كيلاني قد أحسن غاية الإحسان بنشره بحوثاً طليّة في وصف بعض « الخصومات » أو « المناظرات » الأدبية القديمة[1] التي دارت رحاها بين طائفة من أكابر العلماء، وكان لها شأن في توجيه الرأي الأدبي في تلك الأزمنة الغابرة. وما من شك في أن هاتيك الخصومات تمثل لنا لوناً من ألوان الثقافة، وتكشف عن منحى من مناحي المجتمع، كما أنها توضح لنا بأجلى بيان ما كان يضطرم أحياناً في نفوس بعض الأدباء من حبّ للتنافس، وميل إلى الظهور والتصدُّر، وانسياق لعوامل الحقد والضغينة؛ وتفصح لنا عما كانت تنطوي عليه أخلاق بعضهم من كبر أو مكابرة، وعنت أو دهاء ... ومهما يكن من أمر، فإن تلك الخصومات صفحة أدبية رائعة الجمال، إذ شحذ مسطّروها أذهانهم لإحراز الفوز، وأفرغوا ما في وسعهم من الأدلة والبينات التي كانت تتجاوب أصداؤها بينهم، وتتدافع تدافع السيل العرم، لتنال مكانها من الظفر!

ولقد وقفنا على شيء يقرب من ذلك، تشب بين اثنين من أشهر الكتبة الأقدمين، وهما ابن خرداذبة وأبو الفرج الأصفهاني. وإذا تكلّمنا على الأول منهما بما سرَّ بك تفصيله، فلنقل كلمة وجيزة نمهد بها موقفه من الخصومة، فنقول:

#### ( ب ) أبو الفرج الأصفهاني

إن شهرة أبي الفرج البعيدة، تغني عن التعريف به. وكتابه العظيم الموسوم بـ « الأغاني » الذي سلخ في جمعه وتأليفه على ما قال خمسين سنة، لمن أعظم الكنوز الأدبية قيمة، وأحفلها مادة! وكفاه من سمو المنزلة ومزيد الاعتبار أن الصاحب بن عباد — وهو من هو — « كان في أسفاره وتنقلاته يستصحب حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها، فلما وصل إليه كتاب الأغاني لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه لاستغنائه به عنها! »[1]

وكان الصاحب هذا يقول: « لقد اشتملت خزانتي على مائتين وستة آلاف مجلد[2]، ما منها ما هو سميري غيره (أي غير كتاب الأغاني) ولا راقني منها سواه ... »[3]

وكان عضد الدولة « لا يفارقه في سفره ولا حضره، ولقد كان جليسه الذي يأنس به، وخدنه الذي يرتاح إليه »[4]

ولأبي الفرج كتب عديدة أخرى ذكرها مترجموه ورواة أخباره. ضاع أغلبها، ففاتنا بضياعها من الخسارة بما لا يمكن التعويض عنه!

ولسنا في مقام التبسط في ذكر ترجمته، فذاك أمر معروف مشهور، وإنما اكتفينا بالتنويه بكتابه الأغاني، لما له من الخطر في الخصومة التي أشرنا إليها. أما من أراد الوقوف على أخبار أبي الفرج، فعليه بها مفصلة في « تصدير » المجلد الأول من الأغاني المطبوع في دار الكتب المصرية. ففيها كل الغناء

وما لابد من النص عليه، هو أن أبا الفرج توفي في أواسط المائة الرابعة للهجرة (أي في سنة ٣٥٦ للهجرة)، وهي المائة التي ازدهر فيها الأدب العربي، واستقام أمره، واتسعت مادته

#### ( ج ) الخصومة

والخصومة التي سنذكرها، تختلف عن كثير من الخصومات لأنها جرت بين شخصين باعد بينهما الزمن! فقد ذكرنا من قبل أن ابن خرداذبة نادم للمعتمد الخليفة العباسي، وخص به، وكانت وفاة المعتمد في سنة ٢٧٩ هـ. فيكون ابن خرداذبة من أبناء المائة

(١) أنظر « المقتطف » في أجزاء متفرقة من سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣١: حيث أورد هنالك أخبار ست مناظرات جرت بين المسعودي والخوارزمي، وبين الكسائي وسيبويه، وبين المتنبي وأبي فراس، وبين المتنبي وابن خالويه، وبين المتنبي والحاتمي، وبين المعري وعالم الدهلة. ونظن أن هذه المناظرات جمعت في كتاب قائم بنفسه

(١) وفيات الأعيان (١ : ٤٧٥)

(٢) جاء في « مختار الأغاني في الأخبار والتهاني » لابن منظور (١ : ٢) قول الصاحب: « ولقد اشتملت خزانتي على مائة ألف وسبعة عشر ألف مجلد ... » وهي رواية تختلف عن التي أوردناها. ولعل هذه الرواية أقرب إلى الحق وإن كان يرى فيها أيضاً مبالغة

(٣) معجم الأدباء (٥ : ١٠٠ مرجليوث)

(٤) مختار الأغاني (١٠ : ٣)

الثالثة للهجرة ، ولعله تعداها فعاش بعض السنين من المائة الرابعة

أما أبو الفرج الأصفهانى ، فقد وُلِدَ سنة ٢٨٤ ومات سنة ٣٥٦ للهجرة . فهل يكون قد أدرك فى أوائل شبابه شيخوخة ابن خرداذبة؟ وهل يكون قد حصل بينه وبينه تنافر وتباغض أدّى بأبى الفرج إلى أن يقف موقفه الريب بإزاء زميله على ما سنوضحه ؟

فإذا طالعت كتاب « الأغانى » لأبى الفرج ، ألفيته يذكر ابن خرداذبة فى مواطن عديدة منه ، ويستشهد بأقواله ولكنه لا يذكره إلا ليثلبه ، ويحط من قدره ، ويجرده من كل حسنة سواء أكان لذلك كله موجب أم لم يكن ! وهو لا يروى قولاً من أقواله إلا ليردّ عليه ويضعّفه ويتعمد تزييفه ! فهو على ما يبدو ظاهر التحامل . على أننا لا ندرى ما مبلغ الصحة فى ما حكاه عن ابن خرداذبة ، ولا الدواعى الحقيقية التى حملته على أن يشدّد النكير على صاحبه ، لأن مؤلفات ابن خرداذبة التى نَدد بها وانتقد أقوالاً منها قد ضاعت بأجمها ! ولهذا ، نُرجئنا فى هذه الخصومة سنصغى — على الرغم منّا — إلى شهادة جانب واحد ! وللتاريخ أن يحكم على صحة هذه الشهادة ، ولعل الأيام تكشف لنا مصنفات ابن خرداذبة ، فنعود نستمع إلى أقوالها ، وقد ينجلى الأمر إذ ذاك وتتضح الحقيقة !

وإليك أقوال أبى الفرج فى خصمه ، استخلصناها من أماكن مختلفة من كتاب الأغانى :

قال فى ( ٥ : ٣ من طبعة الساسى ، أو ٥ : ١٥٦ من طبعة دار الكتب المصرية )[1] ما هذا بحرفه :

« وذكر ابن خرداذبة ، وهو قليل التحصيل لما يقوله ويضمنه كتبه ، أن سبب نسبته ( أى نسبة إبراهيم الموصلى ) إلى الموصل ، أنه كان إذا سكر كثيراً ما يغنى على سبيل الوَكَع :

أناجت من طرق مَوْصل أحـل قلـــل خَمْريَا
من شارب الملوك فلا بُدَّ من سُكْريَا

وما سمعت بهذه الحكاية إلا عنه ؛ وإنما ذكرتها على غثاثتها لشهرتها عند الناس ، وأنها عندهم كالصحيح من الرواية فى نسبة ابراهيم إلى الموصل ، فذكرته دالاً على عواره » اهـ .

وقال فى ( ١ : ١٨ س ، أو ١ : ٣٦ د ) :

« وذكر ابن خرداذبة أنه ( الكلام على معبد المغنى ) غنّى فى أول دولة بنى أمية وأدرك دولة بنى العباس وقد أصابه الفالج وارتعش وبطل ، فكان إذا غنى يُضحك منه ويُهزأ به . وابن خرداذبة قليل التصحيح لما يرويه ويضمنه كتبه . والصحيح أن معبداً مات فى أيام الوليد بن يزيد بدمشق وهو عنده . وقد قيل : إنه أصابه الفالج قبل موته وارتعش وبطل صوته . فأما إدراكه دولة بنى العباس فلم يروه أحد سوى ابن خرداذبة ، ولا قاله ولا رواه عن أحد وإنما جاء به مجازفة » اهـ .

ونظير ذلك قوله فى ( ٦ : ١٥ س ، أو ٦ : ١٧٣ د ) :

« وذكر ابن خرداذبة ، أنه [ يقصد يحيى المكىّ ] مولى خُزاعة . وليس قوله مما يُحصل ، لأنه لا يعتمد فيه على رواية ولا دراية » ! ومثله قوله ( ١٣ : ١٥٤ س ) :

« ويزعم ابن خرداذبه ، أن الصنعة فيه [ فى بيتين من الشعر أوردها الأصفهانى ] ليزيد[1] وليس كما ذكر ، وإنما أراد أن يوالى بين الخلفاء فى الصنعة ، فذكره على غير تحصيل ، والصحيح ، أنه لمعبد ... »

وشبيه به ما رواه فى ( ١٠ : ١١٥ س ) :

« وذكر ابن خرداذبه ، وهو ممن لا يحصل قوله ولا يعتمد عليه ، أنه [ أى عَلَّويه المغنى ] من أهل يثرب ، مولى بنى أمية »

أو ما قاله فى ( ٨ : ١٥٦ س ، أو ٩ : ٢٧٦ د ) :

« وممن دونت صنعته من خلفاء بنى العباس ، الواثق بالله ، ولم نعلمه حُكى ذلك عن أحد منهم قبله ، إلا ما قدمنا سوه المهدة فيه عن ابن خرداذبه ، فإنه حكى أن لسفاح والمنصور وسائرهم غناء ، وأتى فيها بأشياء غثة ، لا يحسن لمحصل ذكرها » !

ومما يتصل بها المعنى ، ما حكاه أبو الفرج فى ( ٨ : ١٤٤ س أو ٩ : ٢٥٠ د ) :

« قال مؤلف هذا الكتاب : المنسوب إلى الخلفاء من الأغانى والملصق بهم منها ، لا أصل لجله ولا حقيقة لأكثره ، لاسيما

(١) نرمز إلى طبعة الساسى بحرف ( س ) وإلى طبعة دار الكتب بحرف ( د )

(١) هو يزيد الثانى ابن عبد الملك الأموى ، كانت خلافته من سنة ١٠١ إلى ١٠٥ هـ

ما حكاه ابن خرداذبة ، فإنه بدأ بعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فذكر أنه تغنى فى هذا البيت :

كأنّ راكبها غصنٌ بمَرْوَحَة

ثم والى بين جماعة من الخلفاء واحداً بعد واحد ، حتى كأن ذلك عنده ميراث من مواريث الخلافة أو ركن من أركان الإمامة لا بدّ منه ولا معدلَ عنه ، يخبط ( يعنى ابن خرداذبة ) خبطَ العشواء ويجمع جمع حاطب الليل ... ! »

أو ما سطره فى ( ١٣ : ١١٠ س ) :

« وذكر ابن خرداذبة ، أن المهدى اشتراها ( اشترى الجارية بصبص ) وهو ولى العهد ، سراً من أبيه ، بسبعة عشر ألف دينار ، فولدت منه عُلَيّة بنت المهدى . وذكر غير ابن خرداذبة ، أنه غلط فى هذا ، وإن الذى صح ، أن المهدى اشترى بهذه الجملة جارية غيرها وولدت عُلَيّة ... »

* * *

فهذه ، على ما رأيتَ ، آراء صريحة ، طعن فيها أبو الفرج بصاحبه ، وضعّف مروياته . وليس بوسعنا أن نبدى فيها رأياً للسبب الذى قدمناه فى محل آخر من هذا المقال . ونضيف الآن إلى ذلك ، أن عشرات الكتب فى الغناء والمنادمة والشراب وما اتصل بهذه الموضوعات من قريب أو بعيد ، مما صنفه أقدم الكتبة كاسحق الموصلى ، ويحيى بن أبي منصور الموصلى ، وعبد الله بن هارون ، ويونس الكاتب ، وعمر بن بانة ، وحسن ابن موسى النصيبى ، وأبى حشيشة الطنبورىّ ، وجحظة ، وأبى أيوب المدينى ، وغيرهم ، كل تلك الأسفار قد ضاعت وانمحى أثرها ، ولم يبق لنا منها سوى أسمائها الجميلة التى حفظها لنا ابن النديم وغيره فى تصانيفهم

هذا ، وقد ذكر أبو الفرج زميله فى أماكن أخرى من أغانيه ، ونقل عنه أخباراً ومرويات لا فائدة من إيرادها هنا . غير أنه فى بعض نقوله كان يمر به دون ما تجريح ، ذلك إذا راعى جانب الهدوء والاعتدال فى القول ، وإلا ، فلا أقل من أن يتوجّ ما ينقله عنه بعبارة « وزعم ابن خرداذبه »[1] ، ولا يخفى على اللبيب ، ما تنطوى عليه لفظة « زعم » !

فهل كان أبو الفرج فى مواقفه النقدية يتعمد الإساءة إلى أقرانه ومعاصريه ممن ألّف فى موضوع الأغانى وما إليها ؟ أم إنه كان على حق فيما فند وزيّف ، وقد وقفنا على رأى له فى كتاب من هذا القبيل ، ننقله إلى القارئ ، لما فيه من مغزى أدبى ، قال :

« وذكره جحظة [ الكلام هنا على أحمد النَّصِيبىّ المغنّى الطنبورى ] فى كتاب الطنبوريين ، فأتى من ذكره بشىء ليس من جنس أخباره ولا زمانه ، وثلبه فيما ذكره ، وكان مذهبُهُ — عفا الله عنا وعنه — فى هذا الكتاب ، أن يَثْلِبَ جميع من ذكره من أهل صناعته بأقبح ما قَدَر عليه ، وكان يجب عليه ضد هذا ، لأن من انتسب إلى صناعة ، ثم ذكر متقدمى أهلها ، كان الأجمل به أن يذكر محاسن أخبارهم وظريف قصصهم ومليح ماعرفه منهم ، لا أن يثلبهم بما لا يعلم وما يعلم . فكان فيما قرأت عليه من هذا الكتاب أخبار أحمد النصيبى ، وبه صدّر كتابه فقال : [1]

وحسب القارئ أن يسأل لماذا حمل أبو الفرج على جحظة فى موقفه من أحمد النَّصيبى ؟ ونَدد به لأنه ثلب مَن تقدمه ، وهو نفسه لم يطبق هذا المبدأ فى موقفه من ابن خرداذبة على ما مر بنا

## ٧ — ختام البحث

رأى القارئ فى تضاعيف هذا المقال أن ابن خرداذبة كان إلى جانب مركزه الاجتماعى مؤلفاً فى ميادين الكتابة المختلفة ، فقد صنف فى التاريخ والبلدان والأنواء والأنساب والموسيقى والمنادمة والشراب وغير ذلك ... وأن الكتبة انقسموا بشأنه فريقين : له وعليه . فأفراد الفريق الأول وعلى رأسهم المسعودى مدحوه ، وقرظوا كتبه ؛ والفريق الثانى ، وعلى رأسهم الأصفهانى حملوا عليه حملة شعواء فأوسعوه نقداً وتجريحاً

ومن العسير علينا أن نبدى رأياً أو نقول قولاً فى هذا الموقف الذى ينقض أوله آخره ، ونحن فى وقت نتلمس فيه تآليف ابن خرداذبة التى دارت عليها رحى الخصومة ، فلا نجد منها شيئاً ما ، كما أننا لا نجد أغلب الكتب التى تناظرها فى البحث لنتحقق صحة ما قيل فيها ، وقد يتاح حينذاك الحكم لها أو عليها !

( بغداد ) كوركيس عواد

(١) كما فى ( ٦ : ١٦٩ ٣ و ٨ : ٢٢ س د ) من الأغانى

(١) الأغانى ( ٥ : ١٠٣ س ، أو ٦ : ٦٣ د ) .